(سورة الفتح)

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً }

{ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } { وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً }

{ إِنَّا فَتَحنا لكَ فَتْحاً مُبِيناً } فتوح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة: أوّلها: الفتح القريب المشار إليه بقوله:

{ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً }[الفتح، الآية:٢٧]

وهو فتح باب القلب بالترقي عن مقام النفس وذلك بالمكاشفات الغيبية والأنوار اليقينية، وقد شاركه في ذلك أكثر المؤمنين كما أشار إليه بقوله:

{ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ }[الصف، الآية:١٣]، وقوله:

{ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً }[الفتح، الآية:١٨]

ويلزمه البشارة بالأنوار الملكوتية والتجليات الصفاتية كما قال:

{ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ }[الأحزاب، الآية:٤٧].

وحصول المعارف اليقينية وكشوف الحقائق القدسية المشار إليها بقوله:

{ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا }[الفتح، الآية:١٩].

وثانيها: الفتح المبين بظهور أنوار الروح وترقي القلب إلى مقامه وحينئذ تترقى النفس إلى مقام القلب فتستتر صفاتها اللازمة إياها السابقة على فتح القلب من الهيئات المظلمة بالأنوار القلبية وتنتفي بالكلية، وذلك معنى قوله:

{ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك } وكذا الحادثة المتأخرة عنه من الهيئات النورانية المكتسبة بالتنوّر بالأنوار القلبية التي تظهر بها في التلونات وتخفي حالها وهي الذنوب المشار إليها بقوله: { وما تأخر } ولا تنتفي هذه بالفتح القريب وإن انتفت الأولى به لأن مقام القلب لا يتم ولا يكمل إلا بعد الترقي إلى مقام الروح واستيلاء أنواره على القلب فيظهر تلوين القلب حينئذ وينتفي تلوين النفس الذي كان في مقام القلب بالكلية وتنقطع مادته ويحصل في هذا الفتح مغانم المشاهدات الروحية والمسامرات السرية.

وثالثها: الفتح المطلق المشار إليه بقوله:

{ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ }[النصر، الآية:١]

وهو فتح باب الوحدة بالفناء المطلق والاستغراق في عين الجمع بالشهود الذاتي وظهور النور الأحدي، فهذا الفتح المذكور ها هنا هو المتوسط يترتب عليه أمور أربعة: المغفرة المذكورة وإتمام النعمة الصفاتية والمشاهدات الجمالية والجلالية بكمال مقام القلب كما ذكر، والهداية إلى طريق الوحدة الذاتية بالسلوك في الصفات وانخراق حجبها النورية وانكشاف غيومها الرقيقة حتى الوصول إلى فناء الأنية والنصرة العزيزة بالوجود الموهوب وتأييد الحقاني الموروث بعد الفناء.

{ هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰناً مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً }

{ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً }

{ هو الذي انزل السكينة } السكينة نور في القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن وهو من مبادىء عين اليقين بعد علم اليقين كأنه وجدان يقينيّ معه لذة وسرور { ليزدادوا إيماناً } وجدانياً ذوقياً عينياً { مع إيمانهم } العلمي { ولله جنود السماوات } من الأنوار القدسية والأمداد الروحانية { والأرض } من الصفات النفسانية والملكوت الأرضية كالقوى البشرية وغيرها، يغلب بعضها على بعض بمقتضى مشيئته كما غلّب الملكوت السماوية الروحية على الأرضية النفسية في قلوبهم بإنزال السكينة، وغلّب الأرضية على السماوية في قلوب أعدائهم فوقعوا في الشك والريبة { وكان الله عليماً } بسرائرهم ومقتضيات استعداداتهم وصفات فطرة الفريق الأول وكدورة نفوس الفريق الثاني { حكيماً } بما يفعل من التغليب على مقتضى الحكمة والصواب { ليدخل المؤمنين والمؤمنات } بإنزال السكينة { جنّات } الصفات الجارية من تحتها أنهار علوم التوكل والرضا والمعرفة وأمثالها من علوم الأحوال والمقامات والحقائق والمعارف { ويكفِّر عنهم سيئاتهم } من صفات النفوس { وكان ذلك عند الله فوزاً } بنيل درجات المقربين { عظيماً } بالنسبة إلى جنات الأفعال.

{ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً }
{ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }
{ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }
{ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }
{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ
فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً }
{ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً
إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }
{ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ
ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً }
{ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً }
{ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }
{ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ
يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }
{ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْراً حَسَناً
وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }

{ لَّيْسَ عَلَى ٱلأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ٱلأَعْرَجِ حَرَجٌ
وَلاَ عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً }

{ ويعـذِّب المنافقـين والمنافقـات } المبطلـين لاسـتعداداتهم، المكدّريـن لصفائهـا بأفعالهـم وملكاتهـم { والمُشْركـين والمُـشْركات } المردوديـن المطروديـن عـن جنـاب الحـق مـن الأشـقياء الذيـن لا يمكنهـم موافقـة المؤمنـين ظاهـراً لمـا بينهـم مـن التضـادّ الحقيقـي والتباغـض الـذاتي الأصـلي بحسـب الفطـرة { الظانـين باللـه ظـنّ السـوء } لمـكان الشـك والارتيـاب وظلمـة نفوسـهم بالاحتجـاب { عليهـم دائـرة السـوء } بالتعذيـب في الدنيـا بأنـواع الوقائـع كالقتـل والإماتـة والإذلال { وغضـبَ اللـه عليهـم } بالقهـر والحجـب { ولعنهـم } بالطـرد والإبعـاد في الآخرة { وأعدّ لهم } أنواع العذاب

{ وللـه جنـود السـماوات } كررهـا ليفيـد تغليـب الجنـود الأرضيـة عـلى السـماوية في المنافقـين والمشركـين بعكـس مـا فعـل بالمؤمنـين، وبـدّل عليـماً بقولـه: عزيـز، ليفيـد معنـى القهـر والقمـع لأن العلـم مـن بـاب اللطـف والعـزّة مـن بـاب القهـر.

{ إنّ الذيـن يُبَايعونـك } هـذه المبايعـة هـي نتيجـة العهـد السـابق المأخـوذ ميثاقـه عـلى العبـاد في بـدء الفطـرة وإنمـا كانـت مبايعتـه مبايعـة اللـه لأن النبـي قـد يفنـى عـن وجـوده ويحقـق اللـه في ذاتـه وصفاتـه وأفعالـه فـكل مـا صـدر عنـه ونسـب إليـه فقـد صـدر عـن اللـه ونسـب إليـه، فمبايعتـه مبايعـة اللـه تعـالى، وإنمـا قلنـا إنهـا نتيجـة ميثـاق الفطـرة إذ لـو لم تكـن جنسـية ومناسـبة أصليـة بينهـم وبينـه لمـا وجـدت هـذه البيعـة لانتفـاء الإلفـة والمحبـة المقتضيـة لهـا بانتفـاء الجنسـية،

فهـي دليـل سـلامة فطرتهـم وبقائهـا عـلى صفائهـا الأصـلي { يـد اللـه } الظاهـرة في مظهـر رسـوله الـذي هـو اسـمه الأعظـم

{ فَـوْق أيديهـم } أي: قدرتـه البـارزة في يـد الرسـول فـوق قدرتهـم البـارزة في صـورة أيديهـم فيضرّهـم عنـد النكـث وينفعهـم عنـد الوفـاء{ فمـن نكـث } العهـد بتكديـر صفـاء فطرتـه والاحتجـاب بهيئـات نشـأته وتغليـب ظلمـة صفـات نفسـه عـلى نـور قلبـه الموجـب لمخالفـة العهـد { فإنمـا ينكـث عـلى نفسـه }

أي: يعـود ضرر نكثـه عليـه دون غـيره لسـقوطه عـن الفطـرة الأصليـة واحتجابـه

في الظلمات البدنية وحرمانه على اللذات الروحانية وتعذّبه بالآلام النفسانية، وهذا هو النفاق الحقيقي { ومن أوْفى } بالمحافظة على نور فطرته { فسيؤتيه أجراً عظيماً } بأنوار تجليات الصفات ولذات المشاهدات ولهذا سميت هذه البيعة بيعة الرضوان، إذ الرضا هو فناء الإرادة في إرادته تعالى وهو كمال فناء الصفات.

{ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً }

{ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }

{ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً }

{ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً }

{ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً }

{ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً }

{ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً }

{ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }

{ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً }

{ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ

ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ
مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً }
{ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً }
{ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ
ٱلسُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }

ولتحقيق هذا الثواب لاطلاع الله تعالى على صفاء فطرتهم قال:

{ لَقَد رضي الله عن المُؤْمنين إذْ يُبَايعونك تحتَ الشَّجرة فعلم ما في قُلُوبهم } من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد وحفظ النور المذكور { فأنزلَ السكينَةَ عليهم } بتلألؤ نور التجلي الصفاتي الذي هو نور كمالي على نور ذاتي فحصل لهم اليقين { وأثابهم } الفتح المذكور، فحصلوا على مقام الرضا ورضوا عنه بما أعطاهم من الثواب، ولو لم يسبق رضا الله عنهم لما رضوا { ومَغَانم كثيرة } من علوم الصفات والأسماء { يأخذونها وكان الله عزيزاً } حيث كانت قدرته فوق قدرتهم { حَكِيماً } حيث خبّأ في صورة هذا القهر الجليّ معنى هذا اللطف الخفي، إذ ظاهر قوله:

{ يد الله فوق أيديهم } قهر ووعيد حصل منه معنى قوله:

{ لقد رضي الله عن المؤمنين } الذي هو لطف محض.

{ وعَدَكم الله مَغَانِم كثيرة تأخذونها } من علوم توحيد الذات { فعجل لكم هذه وكفَّ أيدِي } ناس صفاتكم عنكم { ولتكون آية } دالة، شاهدة { للمؤمنين } على توحيد الذات { ويهديكم } سلوك صراطه بعد العلم به { وأخرى } من علومه تعالى التي هي عين ذاته بعد فنائكم فيه وتحققكم به حال البقاء بعد الفناء { لم تقدروا عليها } إذ لا تكون إلا له { قد أحاطَ الله بِها } دون من سواه { وكانَ الله على كل شيء } من معلوماته { قديراً } والله أعلم.